معهد محمد علي بالحامة — الأستاذ : عبد الحكيم علوي

2023/2022 — الرابعة آدابا

من أشكال القصّ في الأدب العربي القديم

رسالة الغفران (المعرّي)

رسالة الغفران أثر أدبيّ اختلف النّقاد القدامى والمعاصرون في ضبط جنسه الأدبيّ وذلك تبعا لموقع الرؤية التي كانوا ينظرون منها إلى الأثر. أمّا القدامى فقد اكتفوا في أحسن الحالات باعتبارها نموذجا من "الرسائل الطّوال " واختلفوا في الحكم عليها باختلاف مواقفهم من صاحبها و عقيدته". وأمّا في العصر الحديث فقد تواصل هذا الاختلاف ولكن بشكل آخر تعلّق أساسا بالجنس الأدبي للأثر عامة ولقسم الرحلة خاصة. فهي "أوّل قصّة خيالية عند العرب " في زعم طه حسين وهي من أدب الرحلة عند العقاد أمّا محققتها عائشة بنت الشاطئ فقد أقرّت بأنّها من جنس المسرح، وذهب آخرون إلى اعتبارها نصا عصيّا عن التصنيف. ولا بدّ من الإشارة إلى أن القدامى قد اهتمّوا خاصة بقسم الرّدّ لمحاولة رصد عقيدة المعرّي من خلال أدبه، أمّا القراءة النقديّة المعاصرة فقد اهتمّت بقسم الرّحلة باعتباره القسم الإبداعي في الرّسالة. واتبرى النقاد يفحصون الأثر من جهة خصائصه الفنية ويستنطقونه من جهة دلالته .

I- البنية القصصية :

تعتبر براعة القصّ مصدرا أساسيّا في قسم الرحلة من رسالة الغفران. وقد حرص المعري على تنويع وسائلها وإحكام الربط بينها. وتجلّت تلك البراعة في إخراج الحكاية إخراجا فنيّا في بناء قصصيّ متين مشوّق تضافرت فيه أنماط الخطاب قوامها خيال مبتكر ونصوص تواشجت لتخلق ضربا من التناص فريدا.

1) منطق الأحداث :

* يقوم القصّ في قسم الرّحلة على خمسة مقاطع رئيسية مرتّبة كما يلي: المعراج /النزهة /الحشر /الجحيم /الجنة. ويتسّم المقطعان الأوّلان وكذلك المقطعان الأخيران بالهدوء ، بينما يمثّل موقف الحشر لحظة اضطراب،فكان وجوده متوسّطا المقاطع الخمسة سببا في إضفاء قدر من التشويق على القصّة . فوضع البداية هو وجود ابن القارح في العالم الأخروي وقيامه بنزهة في الجنة ووضع التحول هو يوم الحشر ، أمّا وضع الختام فرجوعه إلى العالم الأخروي ومواصلة تجواله في أرجائه.

* تقوم البنية العامة لرحلة الغفران على قصّة إطار هي جولة ابن القارح في العالم الأخروي، وعنها تتفرّع جملة من القصص الفرعية (حكايات المغفور لهم). وقد منح أبو العلاء الحرّية للبطل كي يتنقل في فضاء مجهول يحمل على البحث والاستكشاف.

* اعتمدت البنية الحديثة لرحلة الغفران على وحدات سردية مستقلّ بعضها عن بعض ، إلا أنها ذات بنية متشابهة. ففي كل وحدة يلتقي ابن القارح شخصية أو عددا من الشخصيات ، فتنطلق الأحداث باللقاء فالحوار، أمّا ختام الوحدة السردية فهو الفراق. وبالتالي خضعت المغامرة لبنية النّظم (Enfilage)، فهي تقوم على تتابع قصص قصيرة وتعدّدها. فالعلاقات بين الأحداث تراكمية أكثر منها سببية. كما تربط بين هذه القصص شخصية ابن القارح .

* خضعت الأحداث في رحلة الغفران إلى ثنائية الحركة والسكون إذ كانت حركة البطل وغيره من الشخصيات محكومة بهذه الثنائية .كما خضعت لضربين من العلاقات:

- علاقة انضماميّة: تخضع الأحداث لمبدأ التجاور لا مبدأ السببية. وهذه البنية للأحداث تجعل النصّ مفتوحا منسجما مع حركة البطل الذي يسير على غير منهج، وذلك من قبيل قوله: " ويبدو له أن يصنع مأدبة في الجنان".
- علاقة استتباعية: أي أنّ العلاقات عِلّيّة، فالمقطوعات السرديّة مرتبطة ببعضها البعض ارتباط الأسباب بالنتائج.

2) الشخصيات :

تعدّدت الشخصيات وتنوّعت في قسم الرحلة. لكنّها انتظمت حول شخصيّة محوريّة ألفت بينها وكانت سبب وجودها وهي شخصيّة ابن القارح، وقد استعمل المعري علاقة بطله بمن حوله لتعرية شخصيته على الوجه الذي يجب في كلّ مرّة .

*** أصنافها** :ابن القارح شخصية محوريّة دائمة الظّهور لا نرى غيره من الشخصيات ولا نسمعها إلاّ في حضوره، أمّا بقيّة الشخصيات فتظهر وسرعان ما تختفي بلا رجعة باستثناء شخصيات معدودة تعاود الظهور (الأعشى.) فالشخصيات التي تساهم في الحدث القصصي تصنف تصنيفات عدّة منها تقسيمها إلى شخصية بطلة (ابن القارح) وشخصيات ثانوية تدور في فلكه.

***علاقاتها** : في إطار علاقتها بالبطل تنقسم الشخصيات إلى مساعدة كفاطمة الزهراء والجارية وإبراهيم وشخصيات معرقلة كرضوان وزفر. ويمكن أن نحصر العلاقات التي تجمع شخصيات رحلة الغفران في ثلاثة أصناف :

- علاقة تباين (ابن القارح/رضوان)
- علاقة تكامل (رضوان /زفر)
- علاقة تماثل (العوران الخمس).

ومن الثنائيات التي تبرز نوعيّة العلاقة بين البطل والشخصيات في عالم الرحلة ثنائية السؤال والجواب وثنائية الحركة والسكون. فالأشخاص فيها إمّا ساكنون وإمّا متحركون ، ويقابل سكونهم عادة تحرّك ابن القارح ويبرزه، وأمّا تحركهم فيقابله سكون ابن القارح ويوضّحه .

***خصائصها:** الشخصيات في رحلة الغفران متنّوعة من حيث طبيعتها (إنس/جان / حيوان...) وجنسها(ذكور/ إناث). وقد حافظ أبو العلاء على الأدوار الحقيقة الدنيويّة لبعض الشخصيات(الشعراء /علماء اللغة...) وجمع قي تشكيلها بين البعدين التاريخي والخيالي، فالأعشى له وجود تاريخي في الدنيا كشاعر وله وجود فني قصصيّ في الرحلة، بينما تجاوز ذلك مع الشخصيات الأخرى وخاصة غير البشرية.

←للشخصيات في رحلة الغفران أفعال تظهر من خلال السّرد (الصيد /إقامة / المآدب /التجوال...) وأحوال توصف "فيلتفت إليه الشيخ هشا بشا مرتاحا...." وأقوال تنقل بالحوار.

3)الراوي :

الراوي شخصية فنيّة يتوسّل بها المؤلّف وهو يؤسّس عالمه الحكائي لتنوب عنه في سرد المحكيّ والتعبير عن مواقفه في شكل فنيّ :

*** أنواعه:** للحكاية الإطار راويها، ففيها يرد ابن القارح متحدثا عنه بواسطة راو خفيّ على صلة بالمعرّي مبدع النصّ، وللحكايات الفرعيّة روّاتها إذ تحاول كلّ شخصية أن تحكي قصتها عندما يفسح لها المجال فقد حدثنا الأعشى بنفسه عن قصّة نجاته من النار.

***مواقعه:**راوح المعرّي بين الرؤية المصاحبة(علم الشخصية=علم الراوي) والرؤية من الخلف (علم الراوي>علم الشخصية). وقد بدا الرّاوي في الغفران عليما فهو يتبع البطل في حركته وسكونه ويرصد أفعاله وأقواله وأحواله.

*** وظائفه:** يلعب الرّاوي عديد الأدوار في رحلة الغفران فهو يتتبّع الشخصيات في حركاتها وسكناتها ويستطيع أن يدرك ما يدور بخلدها ويعرف رغباتها الخفيّة كما يقوم بوظيفة شرح جملة من المفردات على سبيل التلقين والتعليم " أنا رجل مهياف أي شديد العطش". فالمعري سخّر الراوي لتنظيم العمليّة السرديّة وترتيب العلاقات بين الشخصيات وخاصة لتهيئة الظروف لطرح السؤال: " بِمَ غفر لك؟". وهو سؤال أسهم في تنامي القصّة.

4) الإطار المكاني:

ليس المكان في رحلة الغفران مكانا مسطحا وليس إطارا عاريا من كل دلالة بل هو عنصر ساهم في خلق المعنى:

* أمكنة متنوّعة انطلق في تخيّلها عادة من الواقع مع تفخيمه وتعظيمه وتغيير مادته وطبيعته، فالأنهار مثلا هي الأنهار المعروفة ولكن" من اللبن متخرّقات لا تتغيّر بأن تطول الأوقات...".

* تدور الأحداث في عالم أخرويّ متخيّل يتكوّن من محشر وجنّة ونار... وتتفرّع الجنة إلى جنة للإنس وأخرى للعفاريت وأخرى للحيوان ...وقد بنى المعرّي المكان وفق حاجته القصصية فهو إطار خياليّ غرائبيّ ولكنّه يحاكي الواقع في بعض ملامحه. فالأمكنة في قسم الرحلة متنوّعة ومختلفة قيمة ومرتّبة حسب أهمّية أصحابها على غرار ما هو معروف في الدّنيا فلبعض الشعراء في الجنة قصر من درّ (النابغتان) ولبعضهم بيت حقير (الحطيئة).

* لم يقدم أبو العلاء الأمكنة دفعة واحدة في بداية قسم الرحلة وإنّما جعلنا نكتشفها تدريجيّا حسب حركة البطل في العالم الأخروي فلا نجد حديثا عن الصراط إلا حين طلب من البطل عبوره....

* يراوح المعري في رسم ملامح المكان بين الضّيق والاتساع ويجعل الأمكنة على علاقة بنفسية البطل فالأماكن الضيقة تشعره بالاختناق(المحشر) أمّا الأماكن الرحبة فتشعره بالارتياح (الجنة).

← وظّف المعري الأماكن لتوليد الأحداث وشحنها بطاقة رمزيّة سمحت له بنقد عدّة ظواهر في مجتمعه وطرح أسئلة يحار العقل في الظفر بجواب لها .

5) الإطار الزّماني :

*الأزمنة في رحلة الغفران سرمديّة مطلقة " لا يزال سرمدا ناعما في الوقت المتطاول...." مجرّدة من النسبيّة المتعارف عليها في الدّنيا إذ ليس فيها إلا النهار الأبديّ وهي غير فاعلة في الطبيعة والأشياء" سعد من اللبن متخرّقات لا تتغيّر بأن تطول الأوقات "، إلا أن المعرّي يقيسها ويقدّرها بمقادير الواقع الدنيوي ولكن بتفخيم يتناسب مع الآخرة "غبرت برهة نحو عشرة أيّام من أيام الغاشية ...."

*الأزمنة متداخلة لا فواصل بينها يلتقي فيها من عاش في الدنيا مهما اختلفت العصور بمن خلد في الأخرة (رضوان/ زفر). ويحرص المعرّي على التوفيق بين الزمن الخارجي القائم على الذاكرة لاسترجاع حياة كلّ شخصية والزمن الدّاخلي الذي تجري فيه أحداث الرحلة (الحوار بين الأعشى والنابغة الجعديّ حول الرّباب الذّي قامت بسببه الخصومة).

6) السّرد :

*راوح المعري بين نوعين من السرد:سرد آني نجده أساسا في القصة الإطار" يخطر له...يركب... يلتفت..." وسرد استرجاعي يعمد فيه الراوي إلى كسر الخطيّة الزمنيّة. فحكاية دخول ابن القارح الجنّة (المحشر/الصراط..) جاءت في شكل ومضة ورائية ذلك أنّ موقف المحشر هو واقعيا سابق لدخول ابن القارح الجنّة وتجواله في أرجائها ولكن المعرّي أجّله متصرّفا في ترتيب الأحداث.

* مدار رسالة الغفران على برنامجين سرديين: أحدهما يدور على ابن القارح الذي لا يكفّ على طلب المعرفة وقد تجلّى ذلك فيما صدر عنه طول القصّة من أسئلة " ألست القائل ؟" وهذه الرغبة في المعرفة تحكم القسم الأكبر من أفعال ابن القارح وأقواله. أمّا البرنامج الآخر فينحصر في رغبته في دخول الجنة .

7) الوصف :

كثف المعري الوصف في بداية قسم الرحلة حيث أطنب في تصوير الجنة (الأشجار/ الأنهار ....) وتواصل الوصف أثناء تجوال ابن القارح في أرجائها. وتقوم براعة الوصف على حسن مناسبة الفضاء القصصي للأحداث والوقائع فالوصف يرد متدرّجا ضمن السرد فيسنده ويجوّد عبارته لما يشتمل عليه من ضروب التشابيه والاستعارات" فيبتدئ بزهير فيجده كالزهرة الجنية " ويثري رسم الشخصيات والفضاءات .

SOLDIERAC

* استطاع المعري من خلال الوصف تجسيم ما كان متصورا غير دقيق في أذهان المسلمين(تصوير الحور العين/ تصوير عذاب الجحيم ....).

8) الحوار:

تتميّز رسالة الغفران بدقّة كبيرة في بناء الحوار وإحكام توظيفه:

* راوح أبو العلاء بين الحوار الخارجي والحوار الباطني " فقلت لنفسي الكذوب : الشعر عند هذا أنفق منه عند خازن الجنان لأنّه شاعر...."
* تحاور الشخصيات باللّغة العربية وتواصلها دون أي عائق رغم اختلاف طبيعتها .
* تنوّع المواضيع المطروقة في الحوار وتناميها بشكل يفضي إلى التصادم بين المتحاورين (مثال ما حدث بين نابغة بن جعدة والأعشى).

* وظّف المعري الحوار لإثارة المسائل التي يريد الخوض فيها وللكشف عن بواطن الشخصيات بالإضافة إلى استعمال الحوار للنقد والإضحاك والسخرية .

II- الخيال:

تضافرت في حكاية الغفران مجموعة من النصوص (القرآن، الشعر، الأخبار....). وتظهر براعة القصّ في يسر التحوّل بينها واكساب قسم الرحلة بنية داخلية متجانسة وازى فيها المعري بين رحلة ابن القارح في عالم القصّ ورحلة الكاتب المبدع في أجناس الكتابة.

1) مصادره:

عالم الغفران هو من ابتكار المعرّي وخلقه وهو صدى لثقافته وسعة اطلاعه (القرآن / الشعر / أساطير العرب ....)

* **النصّ القرآني:** لقد اتكأ أبو العلاء في تصوير الجنة والنار على ما ترسّب في ذهنه من نصوص وأحاديث نبوية هي التي ولّدت الأوصاف والأحداث والأحوال . وتكمن براعة المعري في الجمع والتنسيق بين هذه النصوص، فقوله " وتجري في أصول ذلك الشجر أنهار تختلج من ماء الحيوان و الكوثر...." يذكّرنا بما جاء في الآية الكريمة " مثل الجنة التي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن...."

* **الحديث النبوي :** استفاد أبو العلاء أيضا من بعض الأحاديث النبوية في تشكيل ملامح عالمه الأخروي: " هذا كما جاء في الحديث: أعددت لعبادي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت..".

***الشعر:** يعد الشعر مصدرا أساسيا من مصادر الخيال في رحلة الغفران فخمرة الجنة مستلهمة من بيت شعري لعلقمة:

تشفي الصداع ولا يؤذيه صالبها ولا يخالط منها الرأس تدويم.

* **الأساطير والخرافات :** غذّت الأساطير والخرافات نصّ الغفران وأغنته. فلقد نقلنا أبو العلاء إلى عالم خيالي تنطق فيه الحيوانات وتنقلب فيه الثمار والطيور إلى جوار حسان.

← نصّ المعرّي برشح نصوصا حاضرة بشكل صريح أو ضمنيّ حضورا وظيفيا فغالبا ما تكون له وظائف فنيّة كتحديد سمات المكان والزمان (يوم الحشر مقداره خمسون ألف سنة) ورسم المشاهد(تحوّل قول الخنساء " كأنه علم في رأسه نار" إلى مشهد صخر الواقف والنار تشتعل في رأسه) والتمهيد لظهور الشخصيات (يترنّم البطل بشعر الأعشى فيظهر صاحبه).

2) مظاهره(تجلياته) : يتجلّى الخيال في رحلة الغفران من خلال:

GOLDEN BAC

* **سوء التفاهم :** تجلىّ سوء التفاهم أساسا في مفارقات الحوار، وذلك نظرا إلى اختلاف منطق ابن القارح في عديد المواضع عن منطق محاوريه وآية ذلك قول زفر له في المحشر " لا أفهم الذي حممت أي قصدت "

* **التكرار :** يتجلى من خلال إصرار ابن القارح على طرح الأسئلة وخاصة ذلك السؤال المرتبط بالغفران. وقد بدا رجلا ملحاحا يكرّر ذات الطلب ويلقى في كل مرة الصدّ والردع (قصته مع رضوان وزفر في موقف الحشر).

* **الجمل الدعائية :** تبعث الجمل الدعائية على الضحك في عديد المواضع من رحلة الغفران، وخاصّة تلك التّي كان ظاهرها دعاء لأبن القارح بالخير وباطنها سخرية منه: " يخلو- لا أخلاه الله من الإحسان – بحوريتين"

* **الاختلال في الجنة :**يرسم المعرّي للجنّة صورة تختلف في عديد الوجوه عن تلك التّي نعرفها من خلال النصوص الدينية. فقد حوّلها ابن القارح إلى فضاء للهو والمجون وسادت فيها الفوضى والخصومات .

2) مظاهره :

تعدّدت مظاهر الإضحاك في رحلة الغفران ومنها :

* **الحركة :**تعدّ حركة البطل المفارقة لسنّة ومقامه (ابن القارح يسترق النظر إلى ردف جارية وهو ساجد) من أهّم مظاهر الإضحاك.

* **الشخصية الساذجة :** بدا ابن القارح في عديد المواضع في رحلة الغفران شخصية ساذجة. فقد حاول التقرّب من رضوان وزفر بأبيات من الشعر ظنا منه أنّ ما يجوز في الدنيا يجوز في الآخرة .

* **الكلمة :** ساق المعرّي عديد الكلمات التي يثير مجرّد النطق بها الضحك (زقفونة / جحجلول / قرقوف....)

* **المشهد /الموقف:** عبور ابن القارح الصّراط محمولا زقفونة على ظهر الجارية .

IV- الاستطراد

يعرّف الجرجانيّ الاستطراد في تعريفاته بقوله " الاستطراد سوق الكلام على وجه يلزم منه كلام أخر وهو غير مقصود بالذّات بل بالعرض " فلو بسطنا هذه الصياغة لقلنا إن الاستطراد هو أن يكون المتكلم في سياق كلام أصليّ أوّل فيخرج عنه إلى كلام ثان لغاية في نفسه ثم يعود إلى كلامه الأصليّ.

1) موقعه من الحوار :

يتولّد الاستطراد عن الأشعار المضمّنة أو عن لفظة حوشيّة تستعملها إحدى الشخصيات .

2) مضامينه :

تبدو مضامين الاستطراد لغويّة أدبيّة بالأساس من خلال تناول ظاهرة عروضيّة أو معجميّة أو نحويّة(كمناقشة حكاية شعر أبي الهندي وشرح لفظة الأباريق)

← تباينت أراء النقّاد حول الاستطراد فبعضهم يذهب إلى أن الاستطرادات التي تقطع سيرورة القصّ تؤذي الجمال الفنّي وتشعر القارئ بالملل، يقول عزت نصر الله في هذا الصدد: "كان أبو العلاء يسرف في ذلك إسرافا واضحا يفسد وحدة الموضوع ويعبث بالنظم"، وفي المقابل يذهب البعض الأخر إلى أن الاستطرادات تنهض بجملة من الوظائف:

- وظيفة فنيّة: السخرية من ابن القارح بوضعه في موضع المتعلم / خلق التشويق بقطع استرسال القصّ.
- وظيفة تعليميّة: إفادة المتلقي بما في ذاكرة المعري من معارف.
- وظيفة نقديّة: إتاحة الفرصة للمعري للكشف عن مواقف نقديّة من شواغل عصره.

GOLDENBAC

- **الأمكنة** : إطار أخروي مفارق لعالمنا الدنيوي أنهاره من لبن وعسل وماء وخمر، وأشجاره تمتدّ بين المشرق والمغرب.

- **الزمان** : زمن مطلق أبدي سرمدي البرهة فيه تساوي أيّاما من أيام الدنيا.

- الشخصيات: الجمع بين شخصيات عاشت في عصور مختلفة / تحوير ملامح بعض الأشخاص المعروفين كالأعشى/ إنطاق كلّ الشخصيات / معرفة السابق للأحق ....

- **الأحداث** : لمشاجرة بين النابغة الجعدي والأعشى لم تحصل في الدنيا / الأحداث العجائبيّة كطيران فرس إبراهيم ابن الرسول....

ويمكن التمييز في رحلة الغفران بين :

* **الخيال الواقعي** : وهو خيال متين الصّلة بالواقع (كوخ الحطيئة في أقصي الجنة)

* **الخيال الغرائبي** : ومن أمثلته قول أسد القاصرة: " أنا افترس ما شاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر أو ناب، ولكن تجد من اللذة كما أجد".

* **الخيال العجائبي** : من الأحداث العجائبية في رحلة الغفران خروج الحوريات من *الثمار*.

3) تقنياته :

تتعدد تقنيات الخيال في رحلة الغفران ومن بينه:

- **التهويل والتضخيم**: ردف الجارية: " فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالج..".
- **التركيب** (كثبان من عنبر).
- **القلب والتحويل**: أي تحويل صورة بعض الشخصيات عن صورتها الحقيقية بقلب العاهات محاسن (العوران الخمس/ الأعشى..).
- **التجسيد**: (تتحوّل أبيات امرئ القيس الواردة بمعلّقته إلى مغامرة يعيشها ابن القارح مع حوريّة في الجنة).

4) وظائفه:

* **وظيفة نفسيّة** : الخيال تنفيس وتعويض عن الحرمان وخلاص من جحيم الواقع وصرامة العقل في اللزوميات.

* **وظيفة فنيّة أدبيّة**: الجمع بين شخوص من أزمان مختلفة وهتك الحواجز بين الإنسان والحيوان. فأبو العلاء تصرّف في الواقع تعديلا وتركيبا وتحويرا حتى انتهى إلى هيئة جديدة لها خصائصها وميزاتها التي تدلّ على براعة فنيّة عند مبدعها.

* **وظيفة نقديّة**: الخيال نقد للواقع وفضح لسلوك المجتمع واحتجاج خفيّ على قيم متردّية، فالخيال وسيلة للإفلات من الرقابة السياسيّة والعقديّة.

III- الإضحاك

1) وسائله :

* **المفاجأة** : ترك المعرّي بطله يسير في العالم الأخروي على غير منهج. وهو ما يجعله معرضا لمواقف غير منتظرة (ضياع صكّ التوبة). وتؤثر المفاجأة في مواقف ابن القارح وأعماله وتؤدّي إلى انقلاب سريع في أحواله.

GOLDEN BAC

V- أساليب الهزل

1) السخريّة :

عرج المعرّي ببطله ابن القارح من الأرض إلى السماء وحمّله عيوبه وعيوب عصره.فالسخرية في رحلة الغفران هي إنكار لواقع أليم وفهم معيّن للوجود والمصير. ولعلّ المتأمّل في هذا القسم يلاحظ وجود وسائل عديدة اعتمدها أبو العلاء للسخرية من ابن القارح وأهل زمانه:

* **السخرية بواسطة التصوير :** وتتجلّى من خلال التقزيم (تحويل يوم الحشر إلى يوم عادي من أيام الدنيا) والتضخيم (أصبح ردف الجارية بحجم كثبان عالج).

* **الثنائيات القائمة على التقابل بين :**

- الفعل والسنّ (ابن القارح الشيخ يهرول في الجنّة والحيّة تلاحقه عارضة اللذّة ...)
- المقام والمقال (التنابز بالألقاب في الجنّة بين الأعشى والنابغة)
- المقام والفعل (استراق البطل وهو ساجد النظر إلى ردف جارية)

* **السخرية بواسطة اللغة :** يظهر الهزل في الغفران في حمل الكلمة أكثر من معنى ، فتصبح تعبّر بغائب المعاني كما هو الحال في النصّ الأوّل (الكلمة الطيبة) فظاهر جملة " بحرها بالحكم مسجور" المدح وباطنها القدح.

2)التهكّم :

تهكّم أبو العلاء من علي بن منصور في أخلاقه وأدبه وعقيدته، وقد بدا ابن القارح شيخا متصابيا لا يتورّع في ركوب أيّة مطيّة للوصول إلى مأربه، فالتحيّل والكذب والخداع وسائل مشروعة عنده لبلوغ الغاية أمّا أقواله فلغو ونفاق، وقد اعتمد المعري للتهكم من بطل الغفران الوسائل التالية:

- الوصف الكاشف لعيوب ابن القارح.
- الحوار الفاضح لفساد أخلاقه.

3) روح العبث :

عبث أبو العلاء بالشخصيات من خلال:

- التأرجح بين المحاولة والفشل، وبين الأمل واليأس وبين التأزّم والانفراج قبل تقرير مصيرها النهائي (ابن القارح / الأعشى).
- الرؤية من خلف (الرّاوي أعلم من الشخصية): مثلت الرؤية من خلف وسيلة للعبث بالشخصية بجعلها تعرف بصفة متأخّرة ما يعرفه الراوي(اكتشاف ابن القارح أنّه مع حمدونة وتوفيق السوداء المنقولتين من الدنيا بعد أن كان يظنّ أنّه مع حوريتين مع حوريات الجنة).

IV- القضايا

كشفت رحلة الغفران جرأة العقل العلائي في إثارة قضايا يعدّ بعضها مسكوتا عنه في الثقافة العربيّة الإسلامية :

1) القضايا الأدبيّة واللغويّة :

***الشعر :** اهتمّ به أبو العلاء من جهة :

GOLDENBAC

- ماهيته :حاول المعرّي تقديم مفهوم جديد للشعر أساسه الصدق وجاء ذلك من خلال اتّهام النابغة الجعدي للأعشى بأنّه " يفتري على كرائم قومه".ويحتلّ الذوق فيه مكانة هامة " الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط..."

-وظيفته :حرص المعري على إدانة التكسّب بالشعر ويتجلّى ذلك من خلال تشبيه النابغة الجعدي للأعشى بالكلب النابح الباحث عن العظام . وقد قرن المدح بالكذب على النفس، فالمدح لا يصدر إلّا عن نفس كاذبة.

- مقاييس المفاضلة بين الشعراء : قابل أبو العلاء بين الكمّ (طول النفس الشعري ....) والكيف (حسن السبك) من خلال الخصومة بين الأعشى والنابغة " وأن بيتا مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك.....". ويبدو أنّ المعرّي من أنصار الجودة الرافضين للإسهاب الذي ينزل الشعر إلى درجة الإسفاف.

- إدانة الانتحال في الشعر والسرقات ،فابن القارح يحفظ قصائد فحول الشعراء وينسبها إلى نفسه لقضاء مآربه.

- مصادر إلهام الشعر(الجان يلهم الشعراء قصائدهم حسب زفر): " إنّما هو للجان وعلّموه ولد آدم".

- احتقار المعرّي للرّجز:فقد وضع شعراء الرّجز في جنّة حقيرة " لو سُبك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة ".

*اللغة : ناقش المعرّي بعض الأوزان الصرفية وبعض قراءات اللغويين للنّصوص القديمة واتّهم علماء اللغة بالإسراف في التأويل، وقد أنطق الشعراء في المحشر بالاحتجاج على النحويين مثال أبي عليّ الفارسي: " وإذا جماعة من هذا الجنس كلّهم يلومونه على تأويله".

2)القضايا العقائدية :

* نقد التصوّر العامي للآخرة: نقد أبو العلاء بعض التصورات التي رسخت في أذهان العامة (الجنة إطار مليء بالمتع الحسية تلبّى فيه الرغبات والشهوات/التصور العامي للحشر والحساب: تقديم يوم الحشر في صورة يوم عادي /مبدأ التعويض /صكوك التوبة...)

* نقد التصورات الشيعيّة التي ترى في آل البيت شفيعا قويا (تجلّى هذا من خلال المنزلة المرموقة لآل البيت في قسم الرحلة ...)

* مناقشة مسألة الغفران وربطها بمبدأ العدالة الإلهية : يرى المعرّي أنّ المغفرة والعدالة الإلهيّة لا يلتقيان. فالعقل هبة من الله يهديه سواء السبيل ويخلّصه من الحاجة إلى أيّة مساعدة. وبناء على ذلك فإنّه من العدل محاسبة الإنسان باعتباره كائنا مسؤولا على كلّ ما يفعله .

*مناقشة طبيعة الجزاء :يكشف قسم الرحلة حيرة المعري أمام المفارقة الصارخة بين الأفعال المؤدية إلى دخول الجنة والجزاء الموعود فيها، فلا يعقل في نظره أن تكون الكلمة الطيّبة ومدح النبيّ والتوبة المتأخّرة وسائل لدخول الجنة.

*نقد استشراء النفاق وافتقار بعض العبادات إلى البعد الروحي: (ابن القارح يسترق النظر وهو ساجد إلى ردف الجارية)

* مناقشة الحكمة الإلهية من إخراج آدم من الجنة : "أما علمتما أنّ آدم خرج من الجنّة بذنب حقير".

3) القضايا الاجتماعية :

* نقد الطبقية في المجتمع : تعكس الفوارق بين أهل الجنة التفاوت الاجتماعي في عصر المعرّي. فقد حدّثنا عن فئة تغرق في النعيم وتسكن القصور في قلب الجنة أمثال لبيد وزهير بن أبي سلمى مقابل فئة أخرى من البؤساء فالخطيئة يسكن كوخا في أقصى الجنة ويعاني الحرمان " وإذا هو ببيت في أقصى الجنّة كأنّه حفش أمة راعية وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنّة".

GOLDEN A+

* **نقد التهافت على اللذّة :** يكشف أبو العلاء من خلال حشد المتع بمختلف أنواعها في جنّة الغفران انتشار مجالس اللّهو والمجون في عصره. وقد جسّد ابن القارح ذلك السّلوك من خلال كثرة إقامة المآدب والمجالس الخمريّة. فكثير من سكان الجنة تسوقهم الغريزة لا هدف لهم سوى طلب اللذّة" ويقبل على كلّ واحدة منهما يترشّف رضابها".

* **نقد فساد الأخلاق وانقلاب القيم :** عبّرت رحلة الغفران عن تراجع القيم الأصيلة التي حلّت محلّها قيم مذمومة كالكذب والخداع والنّفاق ....وما الخصومة التي جرت بين الأعشى والنابغة الجعدي وما حصل بينهما من سباب وتنابز بالألقاب إلاّ صورة لذلك. وقد أصبح الصدق نشازا يجازى عليه المرء بالمكانة الحقيرة (الحطيئة).

* **نقد الوساطة :** انتشرت ظاهرة الحصول على منافع بواسطة الغير دون وجه حقّ في عصر المعرّي الذي عبّر عن هذه الظاهرة من خلال دخول الأعشى الجنة بوساطة عليّ وشفاعة محمّد.

* **بيان تدهور وضعية المرأة :** اقتصر دور المرأة في رحلة الغفران على توفير المتعة للرّجال أو على التوسّط لهم لدخول الجنّة (فاطمة الزهراء) ، وهو دور سياسيّ سلبيّ يذكّرنا بدور زوجات الأمراء والملوك في البلاط.

4) القضايا السياسية :

*المجاهرة بالعداء للملوك وذويهم بسبب استبدادهم والتشفّي فيهم من خلال حشرهم في الجحيم " والشوس الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم .."

*إدانة التنافس اللاّهي المستهتر من خلال الحوار بين ابن القارح والأخطل حول يزيد بن معاوية " لزمت أخلاق سفيه وعاشرت يزيد بن معاوية..أما علمت أنّ ذلك الرجل عاند وفي جبال المعصية ساند؟ ". فقد عاب المعري على ساسة عصره سياستهم الأمور بالهوى والنزوات فهم من العقل خلاء.

* **نقد غياب السلطة المركزية الفاعلة وبيان تعزّز نفوذ الحاشية :** وقد عبّر أبو العلاء عن ذلك من خلال تغييب المشيئة الإلهية في الآخرة وجعل الشخصيات الاعتباريّة تتّخذ القرارات بدلا منه (كان الأعشى يُجَرّ إلى جهنم ولكن شفاعة محمّد أدخلته الجنّة).

* **نقد ظاهرة الجوسسة والوشاية المنتشرة في عصره :** يقول ابن القارح مخاطبا النابغة والأعشى: " يجب أن يحذر من ملك يعبر فيرى هذا المجلس فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم ".

الخاتمة:

لاشك في أنّ المعرّي قد أمتعنا في قسم الرّحلة غاية الإمتاع بخلقه لعالم قصصيّ عجيب وسلّى نفوسنا أيّما تسلية بما بثّه خلاله من أمور مضحكات. ولكنّ هاتين الميزتين لا تحجبان التزامه بالتعبير عن مشاغل عصره، فظاهر القصّ متخيل وباطنه محاورة جادة نطق المعرّي فيها بلسان شخصياته. ولعلّ من عوامل خلود هذا الأثر ما يجده القارئ في كل عصر ومصر من حيرة أمام بنائه ومعانيه ومقاصد مؤلفه. فهو نصّ مفتوح على عديد التأويلات والقراءات نصّ موشّح بروعة الترسّل ومسلّح بفتنة القصّ نصّ يحفّزك بما فيه من خيال وإضحاك وهزل على مزيد التبصّر فيه وفي قضاياه.

ولا بدّ في النهاية من الإشارة إلى تصادي تجربة المعري في فن الترسل الأدبي الذي يتّخذ الخيال مطيّة للتعبير عن شواغل رجل الفكر والأدب مع تجربة ابن شهيد الأندلسي صاحب التوابع والزوابع، بل نعتقد أنّ الأديب الإيطالي دانتي قد حذا في كتابه " الكوميديا الإلهية " حذو رسالة الغفران.

GOLDEN AC